

(٨)

أسماء بنت عميس رضي الله عنها

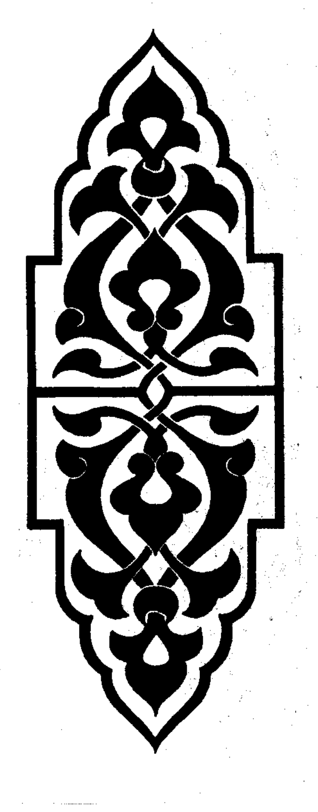
زوجة الأبرار

إبراهيم محمد حسن الجمل

دار الفضيلة

بسم الله الرحمن الرحيم

أَسْـمَاءُ بنـتُ عُمَيْسٍ
(رَضِىَ اللَّـهُ عَنْهَا)



أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ (رَضِىَ الله عنهَا) إِحْدَى المُؤْمِنَاتِ اللَّائِى صَدَقَ فِيهِنَّ قَولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « الأَخَوَاتُ المُؤْمِنَاتُ : مَيْمُونَةُ زَوْجُ النَّبِىِّ ــ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ــ ، وَأُمُّ الفَضْلِ امْرَأَةُ العَبَّاسِ ، وَأَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ امْرَأَةُ جَعْفَرٍ ، وَسَلْمَى امْرَأَةُ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَضِىَ الله عَنْهُنَّ »(١) .

هَـذِهِ شَهَادَةٌ لَمْ يَحْصُل عَلَيْهَا إِلَّا القَلِيلُ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ، فَحِينَمَا يَنْطِقُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾(٢) .

اسْتَحَقَّتْ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنها) هَذَا اللَّقَبَ العَظِيمَ ، وَدَلَّ فِى كُلِّ طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ حَيَاتِهَا الطَّوِيلَةِ المُبَارَكَةِ عَلَى إِيمَانِهَا العَمِيقِ ، وَشَخْصِيَّتها القَوِيَّةِ .

---

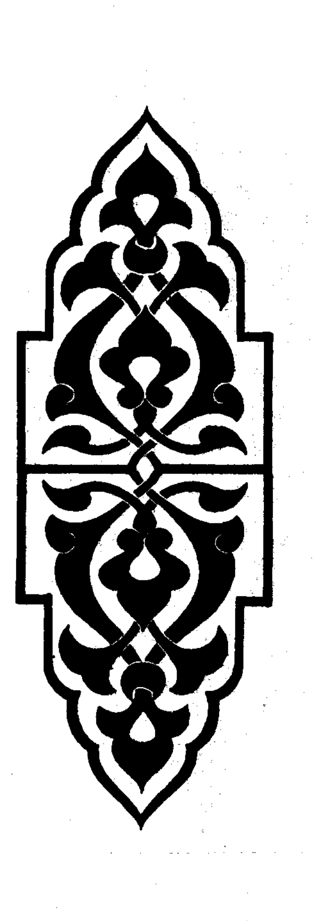
(١) أخرجه الحاكم (٣٣/٤) .
(٢) سورة النجم : الآيتان (٤ ، ٥) .

أَصْـلٌ وَنَسَب

تُنْسَبُ أَسْمَاءُ (رَضِيَ الله عنهَا) إِلَى أَعْرَقِ البُيُوتِ فِي مَكَّةَ ، فَهِيَ مِن بَيْتٍ كَرِيمٍ ، إِنَّهَا بِنْتُ عُمَيْسِ ابن مَعَدّ بنِ تَيْمِ الخَثْعَمِيّ .

وَأُمُّهَا : هِنْدٌ وَتُسَمَّى خَوْلَةُ بنتُ عَوْفِ بن زُهَيْرِ ابنِ الحَارِثِ ، فَهِيَ مِن بَيْتٍ أَصِيلٍ تَرَبَّى أَفْرَادُهُ عَلَى العِفَّةِ وَالطَّهَارَةِ ، يَتَمَنَّى كُلُّ قُرَشِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ شَرَفُ مُصَاهَرَةِ هَذَا البَيْتِ الكَرِيم .

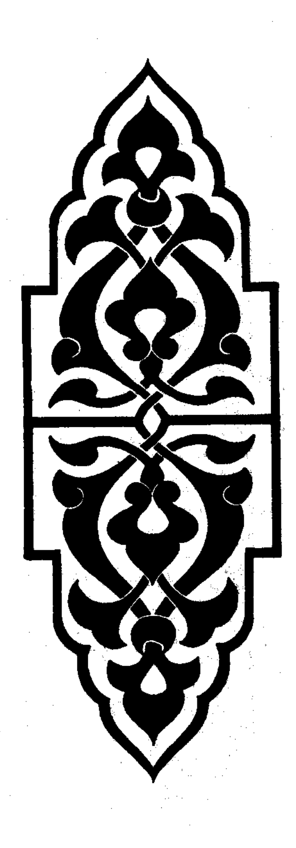
فَلَقَد كَانَتْ أُمُّ أَسْمَاءَ (رَضِيَ الله عنهُما) صَاحِبَةَ وَعْيٍ شَدِيدٍ وَحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ ، وَتَرْبِيَةٍ سَلِيمَةٍ ، وَلِهَذَا زَوَّجَتْ بَنَاتِهَا مِنْ أَكْرَمِ رِجَالِ مَكَّةَ ، وَمِنْ خَيْرِ بُيُوتِهَا ، حَتَّى لَقَد قَالُوا عَنْ هَذِهِ الأُمِّ العَظِيمَةِ : (العَجُوزُ أَكْرَمُ النَّاسِ أَصْهَاراً) .



وَلَا نَنْسَى إِصْهَارَهَا إِلَى العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَحَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المُطَّلِب ، وَجَعْفَرِ بنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَيَكْفِي أَن يَكُونَ مِنْ أَصْهَارِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، وَكَفَاهَا بِذَلِكَ فَخْراً وَاعْتِزَازاً ، فَقَد تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَيْمُونَةَ بنْتَ الحَارِثِ وَهِيَ أُخْتٌ لِأَسْمَاءَ بنتِ عُمَيْسٍ مِنْ أُمِّهَا (رَضِيَ الله عَنْهُنَّ) ، وَالأُمُّ هِيَ المَدْرَسَةُ الأُولَى لِأَبْنَائِهَا عَلَى طُولِ الأَزْمِنَةِ وَالعُصُورِ .

إِيمَــانٌ وَإِسْلَام

كَانَ الهُدُوءُ وَالسَّكِينَةُ يُحِيطَانِ بالبَيْتِ الَّذِى تَعِيشُ فِيهِ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنهَا) ، تُشْرِفُ عَلَيْهِ أُمٌّ صَاحِبَةُ ذَكَاءٍ وَخِبْرَةٍ وَتَوْجِيهٍ وَعِنَايَةٍ ، لِذَلِكَ فَقَدْ مَرَّتْ حَيَاةُ أَسْمَاءَ (رَضِىَ الله عنهَا) هَادِئَةً ، وَحِينَمَا دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَقَارِبَهُ إِلَى الإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ إِرْسَاءٍ لِقَوَاعِدِ وَأُصُولِ الدَّعْوَةِ مِنْ إِفْرَادِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالْعِبَادَةِ ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ ، وَالإِيمَانِ بِالمَبَادِئِ الصَّحِيحَةِ الَّتِى تَدْعُو إِلَى عَمَلِ الخَيْرِ وَالجِهَادِ فِى سَبِيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَتَّى يُؤْمِنَ الجَمِيعُ فَيَكون طَرِيقُهُمْ وَاحِداً ، وَعَمَلُهُم خَالصاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ،كَانَتْ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنهَا) مِنَ المُؤْمِنَاتِ ، وَالمُصَدِّقَاتِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ .

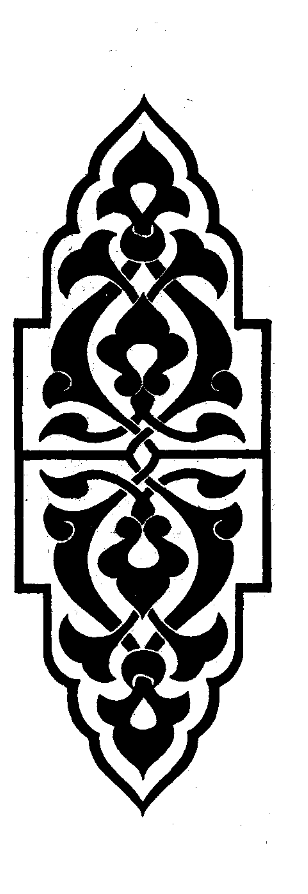


بَدَأَ النَّبِيُّ ﷺ دَعْوَتَهُ فِى عَشِيرَتِهِ الأَقْرَبِينَ ، وَكَانَ بَيْتُ أَسْمَاءَ (رَضِىَ الله عنهَا) مِنَ الأَوَائِلِ الَّذِينَ آمَنُوا ، فَانْضَمَّتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ ، وَلُبَانَةُ الكُبْرَى ، وَسَلْمَى (رَضِىَ الله عنهُنَّ) إِلَى المُوَحِّدِينَ السَّابِقِينَ إِلَى الإِيمَانِ بِبَعْثَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكَانَ مَعَهُنَّ خَدِيجَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَعَلِيُّ بنُ أَبِى طَالِبٍ ، وَعُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ ، وَعُثْمَانُ بنُ مَظْعُونٍ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ ابنُ الجَرَّاح ، وَجَعْفَرُ بنُ أَبِى طَالِبٍ ، وَفَاطِمَةُ بنتُ

الخطَّابِ (رَضِىَ الله عنهُم) ... وَغَيْرُهُمْ مِنَ الأَوَائِلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) .

لَقَد بَايَعَتْ أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ (رَضِىَ الله عنهَا) مِثْلَ بَاقِى المُسْلِمِينَ الأَوَائِلِ عَلَى الدُّخُولِ فِى دِينِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ثُمَّ عَاشَتْ فِى دَارِ الأَرْقَمِ بنِ أَبِى الأَرْقَمِ تَحْفَظُ مَا يَنْزِلُ مِنَ القُرْآنِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَسْتَمِعُ إِلَى مَا يَأْمُرُ بِهِ وَتَتَعَرَّفُ عَلَى مَوَاقِفِ المُشْرِكِينَ فِى مَكَّةَ ، وَمَعَهَا زَوْجُهَا جَعْفَرُ بنُ أَبِى طَالِبٍ (رَضِىَ الله عنهُما) .

كَانَ جَعْفَرٌ هَذَا أَسَنَّ مِنْ عَلِيٍّ (رَضِىَ الله عنهُما) ، وَقَد أَسْلَم بَعْدَ وَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ مُسْلِماً ، فَقَد رَأَى أَبُو طَالِبٍ النَّبِىَّ ﷺ وَعَلِيٌّ يُصَلِّى عَن يَمِينِهِ ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ لِجَعْفَرٍ : (صِلْ جَنَاحَ ابنِ عَمِّكَ ، وَصَلِّ عَن يَسَارِهِ) .



خِطْبَةٌ وَزَوَاجٌ

كَانَ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ حِينَمَا تَبْلُغُ البِنْتُ العَاشِرَةَ تَكُونُ أَهْلًا لِلزَّوَاجِ ، فَيَتَقَدَّمُ الخُطَّابُ إِلَى وَلِيِّ أَمْرِهَا ، لِيَقْتَرِنَ بِهَا مَنْ يَحْظَى بِالمُوَافَقَةِ .

رَأَى جَعْفَرُ بنُ أَبِى طَالِبٍ أَسْمَاءَ (رَضِىَ الله عنهُما) وَقَدْ جَاوَزَتِ العَاشِرَةَ ، وَأَصْبَحَتْ فَتَاةً

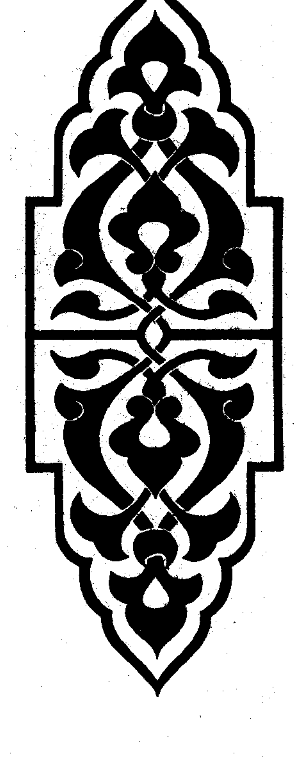
مُتَكَامِلَةً ، فَكَلَّمَ لُبَانَةَ الكُبْرَى زَوْجَةَ عَمِّهِ العَبَّاس بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَأُخْتهَا سَلْمَى زَوْجَةَ عَمِّهِ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، فَكَلَّمَتَا أُمَّهُمَا خَوْلَةَ بنتَ عَوْفٍ فَلَمْ تَجِدَا مِنَ الأُمِّ إِلَّا مُوَافَقَةً تَامَّةً .

جَاءَ أَبُو طَالِبٍ ، وَجَمْعٌ مِنْ إِخْوَتِهِ يَتَقَدَّمُهُمُ العَبَّاسُ وَحَمْزَةُ ، وَتَمَّتِ الخِطْبَةُ ، وَلَمْ يَمْضِ إِلَّا زَمَنٌ يَسِيرٌ حَتَّى أَعَدُّوا العُدَّةَ لِيَوْمِ الزِّفَافِ .

كَانَ جَعْفَرُ بنُ أَبِى طَالِبٍ عِنْدَ الزَّوَاجِ يَقْتَرِبُ مِنَ العِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ أَو يَزِيدُ قَلِيلًا ، وَأَمَّا أَسْمَاءُ فَمَا نَرَاهَا زَادَتْ عَلَى الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ (رَضِىَ الله عنهُما) .

وَجَاءَ يَوْمُ الزِّفَافِ ، وَاجْتَمَعَ الأَهْلُ وَالأَقَارِبُ ، وَذُبِحَتِ الذَّبَائِحُ ، وَغَنَّتِ القِيَانُ (١) ، وَضُرِبَتِ الدُّفُوفُ (٢) ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُ مَكَّةَ كُلُّهُم ، وَتَمَّ كُلُّ شَىْءٍ ، وَدَعَا الجَمِيعُ لِلْعَرُوسَيْنِ بِأَن يُبَارِكَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُمَا ، وَيُبَارِكَ عَلَيْهِمَا ، وَيَجْمَعَ بَيْنَهُمَا فِى خَيْرٍ .

كَانَ هَـذَا الزَّوَاجُ المُبَارَكُ فِى العَامِ الثَّالِثِ مِنَ البَعْثَةِ المُحَمَّدِيَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ .



---

(١) القِيَانُ : جمع القَيْنَةِ ، وهى الأَمة صانعة أو غير صانعة ، وغلب على المغنية .

(٢) الدُّفُوفُ : جمع الدُّفِّ ، وهو آلة طرب ينقر عليها .

وَلَعَلَّ هَذَا النَّسَبَ العَرِيقَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ جَعْفَرَ بنَ أَبِى طَالِبٍ يَهْفُو إِلَى أَسْمَاءَ (رَضِىَ الله عنهُما) لِمَا عَرَفَ عَنْهَا مِن مَكَانَةٍ لِعَائِلَتِهَا وَصِفَاتِ طَبْعِهَا وَجَمالِهَا الَّذِى أَوْدَعَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهَا ، فَمَعَ صِغَرِ سِنِّهَا كَانَتْ آيَةً فِى الجَمَالِ والذَّكَاءِ وَالفَهْمِ لِتَطَوُّرِ الأَحْدَاثِ فِى مَكَّةَ .

إِيـذَاءُ الـمُسْـلِمِـينَ

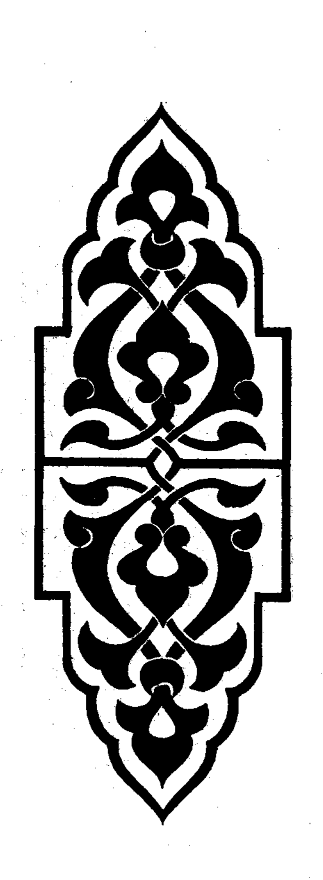
لَمْ يَسْلَمْ مُسْلِمٌ مِنْ إِيذَاءِ المُشْرِكِينَ وَالكُفَّارِ فِى مَكَّةَ حَتَّى ضَجُّوا بالشَّكْوَى وَذَهَبُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَشْكُونَ إِلَيْهِ مَا يُلَاقُونَهُ مِنَ المُشْرِكِينَ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِالْهِجْرَةِ .

قَالُوا : فَإِلَى أَيْنَ يَا رَسُولَ اللهِ نُهَاجِرُ ؟

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِلَى الحَبَشَةِ ، فَإِنَّ فِيهَا مَلِكاً لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ » .

إِلَى الـحَبَشَـةِ

اشْتَدَّ إِيذَاءُ المُشْرِكِينَ للقلَّة المُسلمَة المُقِيمَةِ فى مَكَّة فَفَكَّر جَمْعٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِى الهِجْرَةِ إِلَى الحَبَشَةِ ، مِنْهُم جَعْفَرُ بنُ أَبِى طَالِبٍ وَزَوْجَتُهُ أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ (رَضِىَ الله عنهُما) ، فَبالرَّغم مِن مَكَانَةِ أَبِى طَالِبٍ لَمْ يَسْلَم ابنُهُ مِنْ إِيذَاءِ الكُفَّارِ لَهُ ، فَكَانَتْ هِجْرَةُ جَعْفَرٍ وَزَوْجَتِهِ أَسْمَاءَ بنتِ عُمَيْسٍ (رَضِىَ الله عنهمَا) إِلَى



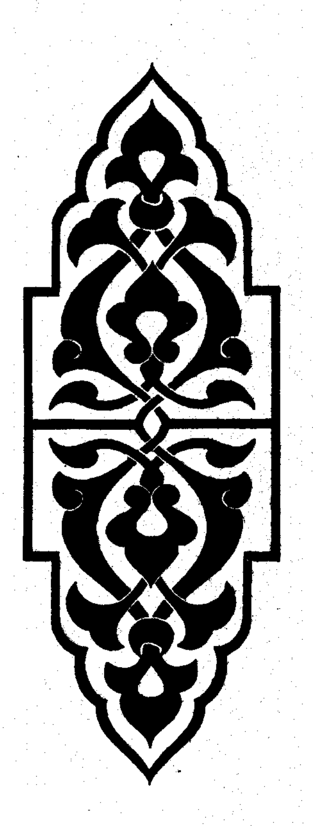
الحَبَشَةِ ... وَلِمَا يَمْتَازُ بِهِ جَعْفَرٌ مِنَ اللَّبَاقَةِ فِى القَولِ وَالذَّكَاءِ وَالمَكَانَةِ أَصْبَحَ يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ : أَمِيرَ المُهَاجِرِينَ إِلَى الحَبَشَةِ ، وَاسْتَقَرَّ بِهِ المَقَامُ هُنَاكَ ، وَحَمَلَتْ أَسْمَاءُ (رَضِىَ اللهُ عنهَا) وَوَلَدَتْ وَلَداً سُمِّىَ عَبْدُ اللهِ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ يُولَدُ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ .

بَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الحَبَشَةِ بِرَسُولَيْنِ مِنْ عِنْدِهَا هُمَا عَبْدُ اللهِ بنُ رَبِيعَةَ ، وَعَمْرُو بنُ العَاصِ وَمَعَهُمَا الهَدَايَا وَالقَرَابِينَ ، وَمَعَهُمَا كِتَابٌ إِلَى المَلِكِ يَطْلُبُونَ مِنْهُ تَسْلِيمَ أُولَئِكَ النَّفَرِ الخَارِجِينَ عَلَيْهِمْ ، وَالمُتَمَرِّدِينَ عَلَى دِينِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ وَعِبَادَةِ اللَّاتِ ، وَالعُزَّى ، وَمَنَاةَ ...

دَعَا النَّجَاشِيُّ أَمِيرَ المُهَاجِرِينَ جَعْفَرَ بنَ أَبِى طَالِبٍ لِيَسْأَلَهُ عَنِ الدِّينِ الجَدِيدِ وَلِيُدْلِىَ بِرَأْيِهِ فِيمَا يَقُولُ الرَّسُولَانِ .

أَجَابَهُ جَعْفَرٌ (رَضِىَ اللهُ عنهُ) بِصَرَاحَةِ المُؤْمِنِينَ رَدًّا عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولَانِ ، وَتَفْنِيداً لِمَزَاعِمِهِمَا وَمَزَاعِمِ مَنْ أَرْسَلَهُمَا .

قَالَ جَعْفَرٌ (رَضِىَ اللهُ عنهُ) : أَيُّهَا المَلِكُ العَظِيمُ ! كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ المَيْتَةَ ، وَيَسْتَعْبِدُ القَوِىُّ مِنَّا الضَّعِيفَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعِفَّتَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنُفْرِدَهُ بِالعِبَادَةِ ، وَنَخْلَعَ مَا عَلَيْهِ آبَاؤُنَا مِنْ عِبَادَةِ الحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الحَدِيثِ



وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الجِوَارِ ، وَالرِّفْقِ بِالضُّعَفَاءِ ... فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ ... وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَرْضَ عَنْهُ حُكَّامُنَا ، فَعَذَّبُونَا ، وَحَاوَلُوا فِتْنَتَنَا وَإِرْجَاعَنَا عَنْ هَذَا الدِّينِ القَيِّمِ إِلَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ ، فَجِئْنَا إِلَيْكَ نَبْتَغِى الأَمْنَ وَالأَمَانَ فِى بَلَدِكَ العَظِيمِ .

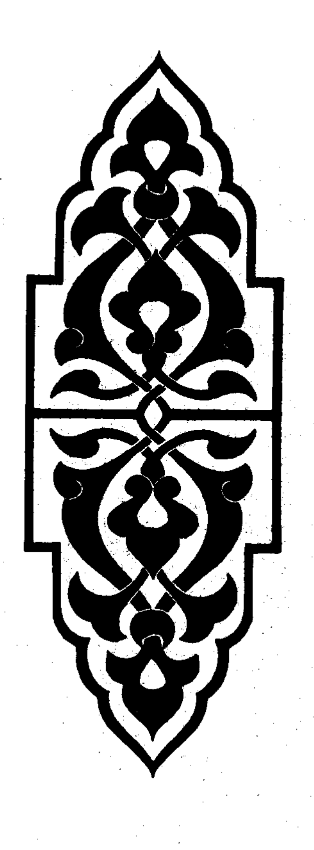
قَالَ عَمْرُو بنُ العَاص : أَيُّهَا المَلِكُ العَادِلُ ... إِنَّا نُرِيدُ أَن تَسْأَلَ جَعْفَراً عَنْ قَوْلِ المُسْلِمِينَ فِى النَّبِىّ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ...

سَكَتَ المَلِكُ بُرْهَةً [1] ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى جَعْفَرٍ (رَضِى الله عنهُ) ، وَقَالَ لَهُ : أَجِبْ يَا جَعْفَرُ عَمَّا يَقُولُه هَذَا .

تَلَا جَعْفَرٌ (رَضِىَ الله عنهُ) الآيَاتِ الأُولَى مِن سُورَةِ « مَرْيَمَ » فَاسْتَرْعَى [2] انْتِبَاهَ المَلِكِ ، فَقَالَ لِجَعْفَرٍ زِدْ فِى قَوْلِكَ ...

فَقَالَ جَعْفَرٌ (رَضِىَ الله عنهُ) : إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ... وَإِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ، وَهَذَا فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ...

صَمَتَ المَلِكُ قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : وَايْمُ الله إِنَّ هَذَا وَالَّذِى جَاءَ بِهِ عِيسَى لَيَخْرُجُ مِن مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ ... وَإِنِّى مَانِعٌ أَهْلَ الإِسْلَامِ فِى أَرْضِى مِمَّا أَمْنَعُ مِنْهُ رَعَايَاىَ عَلَى السَّوَاءِ ...



---

(١) أى مدة صغيرة .   (٢) أى جذب .

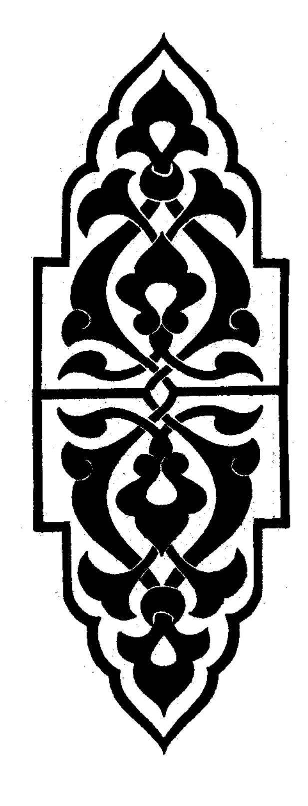
ثُمَّ وَجَّهَ الكَلَامَ إِلَى عَمْرِو بنِ العَاصِ وَمَن مَعَهُ قَائِلًا : انْطَلِقَا ... فَلَن أُسَلِّمَهُم إِلَيْكُمَا أَبَداً .

إِسْلَامٌ وَفَرَح

فَرِحَ المُسْلِمُونَ بِمَا قَالَهُ جَعْفَرٌ (رَضِىَ الله عنهُ) لِلْمَلِكِ ، وَبِمَا رَدَّ عَلَى عَمْرِو بنِ العَاصِ وَصَاحِبِهِ ، وَزَادَ مِن اطْمِئْنَانِهِمْ وَأَمْنِهِمْ ، وَعِبَادَتِهِمْ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَإِخْلَاصِهِمْ لَهُ وَشُكْرِهِ عَلَى تَوْفِيقِهِ لِجَعْفَرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) فِى رَدِّهِ عَلَى اتِّهَامَاتِ عَمْرِو بنِ العَاصِ وَمَن مَعَهُ .

وَانْتَحَى[1] النَّجَاشِيُّ نَاحِيَةً بِجَعْفَرٍ وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ ، إِلَّا أَنَّهُ أَخْفَاهُ عَنْ أَتْبَاعِهِ ، حَتَّى يَأْتِى اليَوْمُ المُنَاسِبُ ، فَيُعْلِنهُ عَلَى قَوْمِهِ .

لَقَد انْتَشَرَ مَا دَارَ بَيْنَ المَلِكِ وَجَعْفَرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) وَالرَّسُولَيْنِ فِى كُلِّ مَكَانٍ ، وَآمَنَ مِنْ أَهْلِ الحَبَشَةِ كَثِيرُونَ ، وَكَانَ سَبَباً فِى نَشْرِ الحَدِيثِ عَنِ الإِسْلَامِ فِى أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ أَرْضِ إِفْرِيقيَّة .



بَيْنَ النَّجَاشِيِّ وَالنَّبِيِّ ﷺ

فِى الوَقْتِ الَّذِى كَانَ المُسْلِمُونَ فِى الحَبَشَةِ يَعْبُدُونَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِى أَمْنٍ وَأَمَانٍ كَانَ هُنَاكَ فِى مَكَّةَ كِفَاحٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَتَحَمُّلٌ عَجِيبٌ لِمَا يُبْدِيهِ المُشْرِكُونَ مِنْ إِيذَاءٍ حَتَّى وَصَلَ بِهِمُ الحِقْدُ وَالحَسَدُ

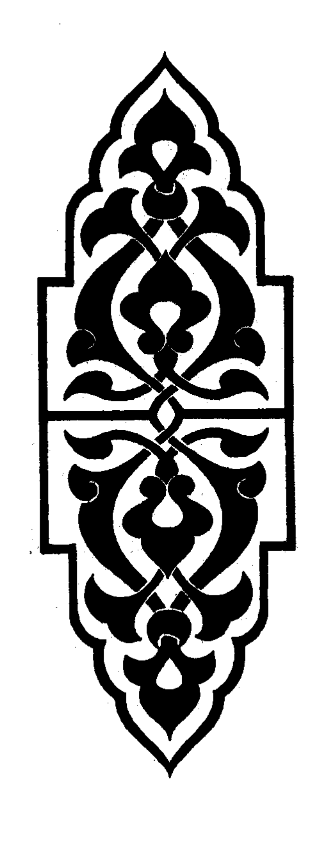
---

(١) أى أخذ جانباً .

بِأَن يُفَكِّرُوا فِى قَتْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ هِجْرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَثِيرٌ مِنَ الـمُسْلِمِينَ إِلَى المَدِينَةِ .

هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) إِلَى المَدِينَةِ ، فَاسْتَقَرَّتْ فِيهَا دَعْوَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعِيداً عَنْ عَنَتِ الـمُشْرِكِينَ وَمَتَاعِبِهِمْ ، وَانْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ فِى أَنْحَاءِ جَزِيرَةِ العَرَبِ ، وَأَصْبَحَ عِنْدَ الـمُسْلِمِينَ مِنَ القُوَّةِ مَا يَسْتَطِيعُونَ بِهِ أَن يُقَابِلُوا الشِّدَّةَ بِالشِّدَّةِ ، وَهَذَا فَضْلٌ وَنِعْمَةٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ عَمْرَو بنَ أُمَيَّةَ الضَّمَرِىَّ يَطْلُبُ مِنْهُ إِعَادَةَ الـمُسْلِمِينَ إِلَى وَطَنِهِمُ الآمِنِ بِعَاصِمَةِ الإِسْلَامِ فِى المَدِينَةِ ... فَأَعَادَهُمُ النَّجَاشِىُّ مُكْرَمِينَ عَلَى سَفِينَتَيْنِ ، فَقَدِمُوا عَلَى النَّبِىِّ ﷺ ، وَكَانَ وُصُولُهُم يَوْمَ أَن وَقَفَ الرَّسُولُ الأَعْظَمُ ﷺ فِى أَصْحَابِهِ وَأَنْصَارِهِ يَدُكُّونَ حُصُونَ أَعْدَاءِ الحَقِّ مِن يَهُودِ خَيْبَرَ ، وَلِيُطَهِّرُوا البِلَادَ مِنْ أُنَاسٍ أَحْيَاناً يَغِيبُ عَقْلُهُم فَتَكْثُرُ مَآسِيهِمْ ، وَيُحَاوِلُونَ نَشْرَ الفِتَنِ وَالمَفَاسِدِ بَيْنَ النَّاسِ .



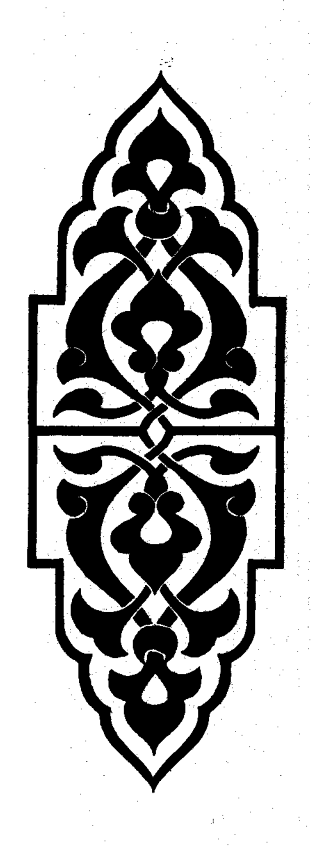
القَادِمُ السَّعِيدُ

كَانَتْ فَرْحَةُ النَّبِىِّ ﷺ كَبِيرَةً بِاسْتِقْبَالِ الـمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَتَوْا مِنَ الحَبَشَةِ ، وَكَانَتْ فَرْحَتُهُ أَكْبَرَ وَأَكْبَرَ عِنْدَمَا اسْتَقْبَلَ جَعْفَراً وَأَهْلَهُ ، فَقَد ضَمَّ جَعْفَراً إِلَى صَدْرِهِ ، وَأَخَذَ يَشُمُّهُ وَيُقَبِّلُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ

وَيَقُولُ : مَا أَدْرِى بِأَيِّهِمَا أَنَا أَسَرُّ ... بِفَتْحِ خَيْبَر ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ ؟!!

أَخَذَ الرَّسُولُ ﷺ يُنَاجِى جَعْفَراً وَإِخْوَانَهُ ، ثُمَّ اتَّجَهَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى جَعْفَرٍ وَقَالَ : « وَأَمَّا أَنْتَ يَا جَعْفَرُ ، فَأَشْبَهْتَ خَلْقِى وَخُلُقى ، وَأَنْتَ مِنْ عِتْرَتِى[1] الَّتِى أَنَا مِنْهَا »[2].

أَسْمَاءُ (رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا) فِى الْمَدِينَةِ



اسْتَقَرَّتْ حَيَاةُ جَعْفَرٍ وَزَوْجَتِهِ أَسْمَاءَ بنتِ عُمَيْسٍ وَأَوْلَادهمَا (رَضِىَ الله عنهُم) فِى المَدِينَةِ ، وَذَاتَ يَوْمٍ عَادَ جَعْفَرٌ مِنَ المَسْجِدِ وَهُوَ شَدِيدُ الأَلَمِ وَالْحُزْنِ ، فَسَأَلَتْهُ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنهَا) : مَاذَا بِكَ يَا جَعْفَرُ ؟

قَالَ جَعْفَرٌ (رَضِىَ الله عنهُ) : واللهِ يَا أَسْمَاءُ إِنَّهَا أُمُورٌ يَحْزَنُ لَهَا القَلْبُ ، وَيَعْجَزُ اللِّسَانُ عَنْ وَصْفِهَا .

قَالَتْ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنهَا) : مَا هِىَ ... وَهَلْ هُنَاكَ مِن جَدِيدٍ يَحْزَنُ لَهُ القَلْبُ بَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّتْ حَيَاتُنَا وَهَلَكَ عَدُوُّنَا ؟

قَالَ جَعْفَرٌ (رَضِىَ الله عنهُ) : يَا أَسْمَاءُ ، المُسْلِمُ دَائِماً فِى جِهَادٍ ، وَالدَّعْوَةُ تَحْتَاجُ إِلَى رِجَالٍ لِيَنْشُرُوهَا فِى جَمِيعِ أَنْحَاءِ العَالَمِ .

---

(١) العِتْرَةُ : نسل الرجل ، ورهطه ، وعشيرته .
(٢) رواه أحمد (٩٨/١) .

قَالَتْ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنهَا) : خَبِّرْنِى بالله ، مَا الجَدِيدُ فِى أُمُورِ المُسْلِمِينَ ؟

قَالَ جَعْفَرٌ (رَضِىَ الله عنهُ) : أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَن يَحْمِلُ رِسَالَةً إِلَى حَاكِمِ (بُصْرَى) [بَلَدٌ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الشَّامِ] فَقَتَلَهُ حَاكِمُهَا ، وَهَذَا عَمَلٌ إِجْرَامِيٌّ ، فَقَتْلُ مَن يُوَصِّلُ رِسَالَةً يُعْتَبَرُ إِهَانَةً بَالِغَةً لِمَنْ أَرْسَلَ الرِّسَالَةَ .

قَالَتْ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنهَا) : وَمَنْ أَرْسَلَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ ؟

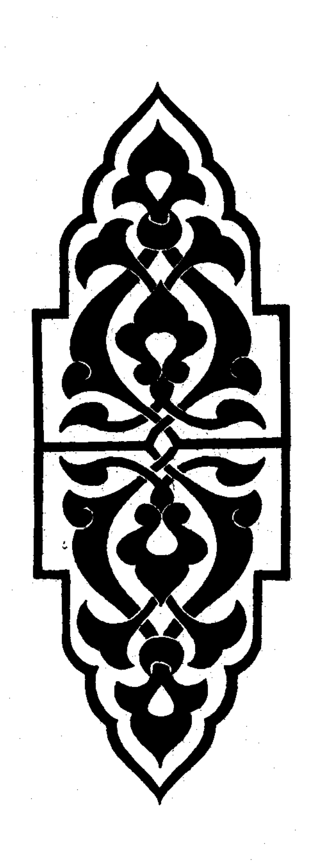
قَالَ جَعْفَرٌ (رَضِىَ الله عنهُ) : إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ .

قَالَتْ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنهَا) : وَهَلْ سَيَسْكُتُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى هَذَا الأَمْرِ ، وَيَنْتَظِرُ حَتَّى تَحْصُلَ مُنَاسَبَةٌ فَيَنْتَقِم مِنْ هَذَا المُجْرِمِ الآثِمِ .

قَالَ جَعْفَرٌ (رَضِىَ الله عنهُ) : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِى حُزْنٍ عَمِيقٍ ، وَقَدْ أَعْلَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن تَجْهِيزِ جَيْشٍ لِتَأْدِيبِ الحَاكِمِ الَّذِى غَدَرَ بِرَسُولِهِ .

قَالَتْ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنهَا) : هَلْ عَرَفْتَ مَن سَيَقُودُ هَذِهِ الحَمْلَةَ ؟

قَالَ جَعْفَرٌ (رَضِىَ الله عنهُ) : نَعَمْ يَا أَسْمَاءُ ، قَدْ عَرَفْتُ ، فَقَد سَأَلَنِى رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِلًا : هَلْ أَنْتَ يَا جَعْفَرُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْقِيَامِ بِقِيَادَةِ تِلْكَ الحَمْلَةِ التَّأْدِيبِيَّةِ لِحَاكِمِ (بُصْرَى) ؟

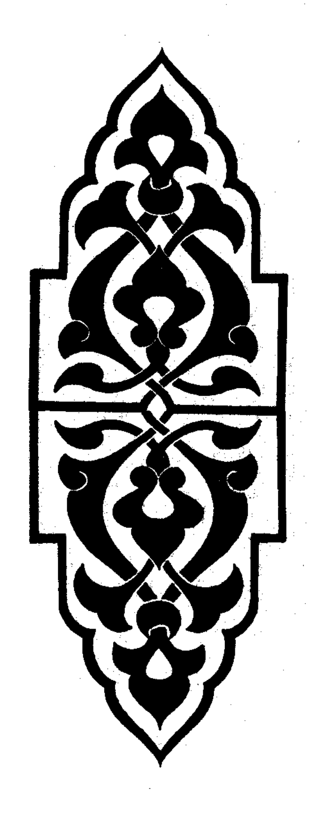


قُلْتُ يَا أَسْمَاءُ لِرَسُولِ اللَّهِ : إِنَّنِي عَلَى اسْتِعْدَادٍ تَامٍّ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ[1] .

سَعِدَتْ أَسْمَاءُ بِاسْتِعْدَادِ زَوْجِهَا (رَضِىَ الله عنهُما) لِلْجِهَادِ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَالْمُشَارَكَةِ فِى غَزْوَةٍ مِنَ الغَزَوَاتِ ، وَبَدَأَ جَعْفَرٌ يُجَهِّزُ آلَاتِ القِتَالِ فَأَحْضَرَتْ لَهُ أَسْمَاءُ الدِّرْعَ وَالسَّيْفَ وَالقَوْسَ .

أَخَذَ جَعْفَرٌ (رَضِىَ الله عنهُ) يَشُدُّ ثِيَابَ القِتَالِ عَلَى بَدَنِهِ ، وَيُمْسِكُ بِزِمَامِ فَرَسِهِ وَيَأْخُذُ مَعَهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ اللهِ .

سَلَّمَ جَعْفَرٌ عَلَى أَوْلَادِهِ (رَضِىَ الله عنهُم) ، وَضَمَّهُمْ إِلَى صَدْرِهِ ، وَوَصَّاهُمْ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى اتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ الدِّينُ ... وَتَبَادَلَ مَعَ زَوْجَتِهِ أَسْمَاءَ (رَضِىَ الله عنهَا) عِبَارَاتِ الدُّعَاءِ وَالشُّكْرِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَوْلَاهُمْ مِن نِعْمَةِ الإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الحَقِّ وَالسَّعَادَةِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .



وَصِيَّةٌ وَوَدَاعٌ

تَجَهَّزَ الجَيْشُ ، وَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُوصِى الْمُسْلِمِينَ بِتَقْوَى اللهِ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ وَالصُّمُودِ فِى وَجْهِ الأَعْدَاءِ ، وَعَيَّنَ لِلْجَيْشِ ثَلَاثَةَ قُوَّادٍ عِظَامٍ : عَيَّنَ (زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ) أَمِيراً عَلَى الجَيْشِ ، وَأَخْبَرَهُمْ إِنْ

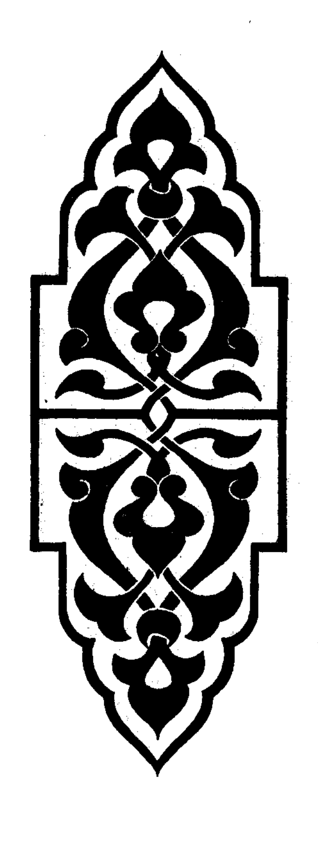
---

(١) راجع : البداية (٢٠٦/٤) .

أُصِيبَ زَيْدٌ ، تَوَلَّى (جَعْفَرُ بنُ أَبِى طَالِبٍ) الإِمَارَةَ بَعْدَهُ ، فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ ، تَوَلَّى بَعْدَهُ (عَبْدُ اللهِ بنُ رَوَاحَةَ) ، فَإِنْ أُصِيبَ اخْتَارَ المُسْلِمُونَ مَنْ يَرَوْنَهُ صَالِحاً لِذَلِكَ (رَضِىَ اللهُ عنهُم) .

حَضَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَاعَةَ بَدَأَ الجَيْشُ فِى مَسِيرَتِهِ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ الأُمَرَاءُ ، وَعِنْدَمَا أَخَذَ عَبْدُ اللهِ ابنُ رَوَاحَةَ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَكَى ، فَقَالُوا : مَا يُبْكِيكَ يَا ابنَ رَوَاحَةَ ؟

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن رَوَاحَة (رَضِىَ اللهُ عنهُ) : أَمَا وَاللهِ مَا بِى حُبُّ الدُّنْيَا وَلَا الشَّوْقُ بِكُمْ ، وَلَكِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ آيَةً فِى كِتَابِ اللهِ يَذْكُرُ فِيهَا النَّارَ : ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا** ﴾[1] فَلَسْتُ أَدْرِى ، كَيْفَ بالصُّدُورِ بَعْدَ الوُرُودِ !!



سَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى ظَاهَرَ المَدِينَةَ ، فَكَانَ مِمَّا أَوْصَاهُمْ بِهِ : أَلَّا يَقْتُلُوا النِّسَاءَ ، وَلَا الأَطْفَالَ ، وَلَا المَكْفُوفِينَ ، وَلَا الصِّبْيَانَ ، وَلَا يَحْرِقُوا زَرْعاً ، وَلَا يَقْتُلُوا دَابَّةً ، وَلَا يَقْتُلُوا امْرَأَةً وَلَا يَهْدِمُوا بَيْتاً ، وَلَا يَقْتُلُوا رَاهِباً فِى صَوْمَعَتِهِ ، وَلَا يُمَثِّلُوا بالقَتْلَى ، وَلَا يَجْهِزُوا عَلَى الجَرْحَى .

وَدَعَا (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) ، وَدَعَا المُسْلِمُونَ

---

(١) سورة مريم : الآية (٧١) .

لِهَذَا الجَيْشِ قَائِلِينَ : صَحِبَكُمُ اللهُ ، وَدَفَعَ عَنْكُمْ ، وَرَدَّكُم إِلَيْنَا سَالِمِينَ !

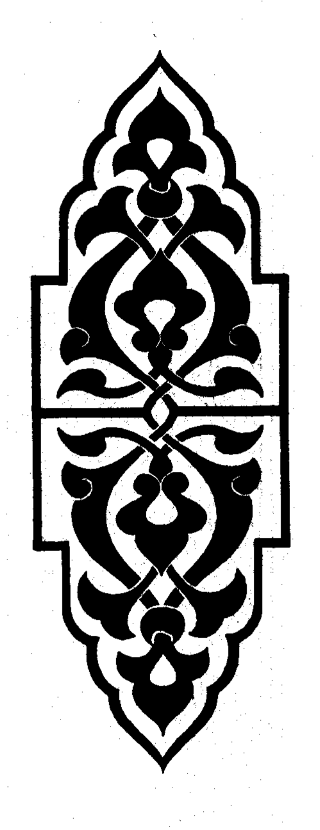
ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ[1].

هَزِيمَةٌ وَنَصْرٌ

كَانَتْ أَنْبَاءُ مَسِيرَةِ جَيْشِ المُسْلِمِينَ قَد بَلَغَتِ الرُّومَ ، فَأَعَدُّوا جَيْشاً قِوَامُهُ مِائَةُ أَلْفِ مُقَاتِلٍ مِنَ الرُّومِ ، انْضَمَّ إِلَيْهِمْ مِائَةُ أَلْفٍ أُخْرَى مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامٍ وَالقَيْنِ وَبَهْرَاءَ وَبَلِيٍّ .

وَلَمَّا بَلَغَ المُسْلِمِينَ وَهُمْ بِمَعَانٍ[2] أَمْرُ هَذِهِ الجُمُوعِ ، أَقَامُوا لَيْلَتَيْنِ يُفَكِّرُونَ مَاذَا يَصْنَعُونَ أَمَامَ هَذَا العَدَدِ الَّذِى لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ .

قَالَ قَائِلٌ : نَكْتُبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنُخْبِرُهُ بِعَدَدِ عَدُوِّنَا ، فَإِمَّا أَن يَمُدَّنَا بالرِّجَالِ ، وَإِمَّا أَن يَأْمُرَنَا بِأَمْرِهِ فَنَمْضِى لَهُ ، وَكَادَ هَذَا الرَّأْىُ يَسُودُ لَوْلَا أَن تَقَدَّمَ عَبْدُ اللهِ بنُ رَوَاحَةَ (رَضِىَ الله عنهُ) فَقَالَ : يَا قَوْمِ ! إِنَّ الَّتِى تَكْرَهُونَ لَلَّتِى خَرَجْتُم تَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ ، وَمَا نُقَاتِلُ النَّاسَ بِعُدَدٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا كَثْرَةٍ ، مَا نُقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِى أَكْرَمَنَا اللهُ بِهِ ، فَانْطَلِقُوا ، فَإِنَّمَا هِىَ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ : إِمَّا النَّصْرُ ، وَإِمَّا الشَّهَادَة .



---

(١) راجع : البداية (٢٤١/٤ - ٢٦٢) .

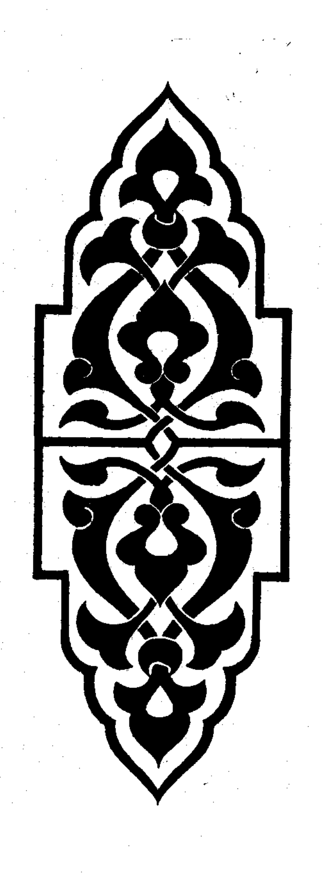
(٢) موضع بالشام .

فَقَالَ النَّاسُ : فَوَاللهِ صَدَقَ ابنُ رَوَاحَةَ ! وَمَضَوْا حَتَّى انْحَازُوا إِلَى قَرْيَةِ (مُؤْتَةَ) .

بَدَأَتِ المَعْرَكَةُ بَيْنَ جَيْشَيْنِ ، عَدَدُ الأَوَّلِ مائَتَا أَلْفٍ ، وَعَدَدُ الثَّانِي ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَهِيَ قُوَّةٌ غَيْرُ مُتَكَافِئَةٍ .

الْتقَتِ القُوَّتَانِ المُتَبَايِنَتَانِ ، فَاسْتُشْهِدَ أَمِيرُ الجَيْشِ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ (رَضِيَ اللهُ عنهُ) ، فَقَد قَطَّعَتْهُ سُيُوفُ الأَعْدَاءِ .

ثُمَّ تَقَدَّمَ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللهُ عنهُ) لِيَخْلُفَ القَائِدَ الشَّهِيدَ امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بالمَدِينَةِ .

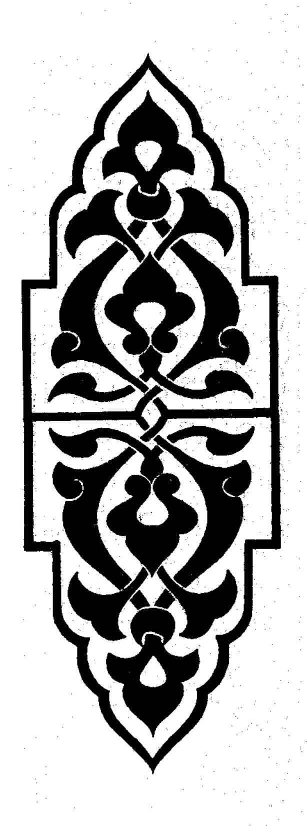


قِيَادَةُ جَعْفَر بنِ أَبِي طَالِبٍ لِلْجَيْشِ

نَزَلَ جَعْفَرٌ (رَضِيَ اللهُ عنهُ) مِنْ أَعْلَى فَرَسِهِ الشَّقْرَاءِ ، وَرَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ العَدُوِّ يَضْرِبُ بِسَيْفِهِ يَمِيناً وَشِمَالًا ، وَانْقَضَّ عَلَى هَامَاتِ الرُّومِ يَطِيحُ بِهَا ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، مُتَوَغِّلًا فِي صُفُوفِهَا ، لَا يَحْجِزُهُ حَاجِزٌ ، وَخَافَ قُوَّادُ الرُّومِ مِن مَصِيرِهِمْ المَحْتُومِ ، فَحَشَدُوا جُزْءًا كَبِيراً مِن قُوَّاتِهِم وَأَحَاطُوا بِجَعْفَرٍ وَحْدَهُ مِن كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَخَذُوا يُضَيِّقُونَ عَلَيْهِ الحِصَارَ ، حَتَّى اسْتَطَاعُوا أَن يُصِيبُوهُ بِضَرْبَةِ سَيْفٍ قَطَعَتْ يَمِينَهُ ، فَأَخَذَ اللِّوَاءَ بِشِمَالِهِ فَمَا لَبِثَ أَن أُصِيبَ بِضَرْبَةٍ ثَانِيَةٍ قَطَعَتْ شِمَالَهُ ، فَحَملَ اللِّوَاءَ بَيْنَ عَضُدَيْهِ حَتَّى لَا تَسْقُطَ عَلَى الأَرْضِ رَايَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَأَخَذَ يُكَبِّرُ وَيُهَلِّلُ ،

لَكِنَّ سُيُوفَ الرُّومِ كَثرَتْ فَقَطَعَتْ رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ شَطَرَتْ جِسْمَهُ شَطْرَيْنِ ، بَعْدَ أَن أَصَابَهُ الأَعْدَاءُ بِثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ طَعْنَةً .

صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ العَصْرَ بالمَسْجِدِ بالمَدِينَةِ يَوْمَ المَعْرَكَةِ ، وَجَلَسَ مَعَ أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَنْظُرُ أَمَامَهُ ، وَكَأَنَّهُ يَقْرَأُ كِتَابَ الغَيْبِ ، فَيَعْلَمُ بِمَا يَدُور فِي مَعْرَكَةِ مُؤْتَةَ ، وَكَأَنَّهُ هُنَاكَ يَرَى القِتَالَ خُطْوَةً خُطْوَةً ، وَقَد عَلَتْ وَجْهَهُ حُمْرَةُ الأَسَى وَهُوَ يَقُولُ : « أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً ... ثُمَّ أَخَذَها جَعْفَرٌ فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً ..لَقَدْ رَأَيْتُ جَعْفَراً فِي الجَنَّةِ بِجَنَاحَيْنِ ... »[1] ، ثُمَّ سَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ .



قِيَادَةُ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ لِلْمَعْرَكَةِ

اتَّفَقَ المُسْلِمُونَ المُحَارِبُونَ أَن يَتَوَلَّى خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ (رَضِيَ اللهُ عنهُ) القِيَادَةَ ، بَعْدَ اسْتِشْهَادِ عَبْدِ اللهِ ابنِ رَوَاحَةَ (رَضِيَ اللهُ عنهُ) فَنَاوَرَ[2] بالمُسْلِمِينَ حَتَّى ضَمَّ صُفُوفَهُمْ ، وَأَخَذَ فِي مُنَاوَشَةِ جَيْشِ العَدُوِّ الكَبِيرِ حَتَّى جَاءَ اللَّيْلُ وَوَضَعَ الجَيْشَانِ السِّلَاحَ إِلَى الصَّبَاحِ ، وَفِي الصَّبَاحِ وَزَّعَ القَائِدُ خَالِدٌ عَدَداً غَيْرَ قَلِيلٍ مِن رِجَالِهِ فِي خَطٍّ طَوِيلٍ مِن مُؤَخِّرَةِ جَيْشِهِ ، فَظَنَّ العَدُوُّ أَنَّ مَدَداً جَدِيداً جَاءَ إِلَى المُسْلِمِينَ ، فَخَافُوا إِنْ هُم اسْتَعَدُّوا

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٩/٤) .   (٢) دار وتجول .

لِلْمَعْرَكَةِ ، وَهَاجَمُوا المُسْلِمِينَ فِى هَذَا الوَقْتِ ، اسْتَطَاعَ خَالِدٌ (رَضِىَ الله عنهُ) أَن يَرْجِعَ بِالجَيْشِ وَيُنْهِىَ المَعْرَكَةَ بِتَخْطِيطٍ بَارِعٍ وَانْسِحَابٍ أَقَرَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَشَكَرَ خَالِداً عَلَيْهِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى المَدِينَةِ(١) .

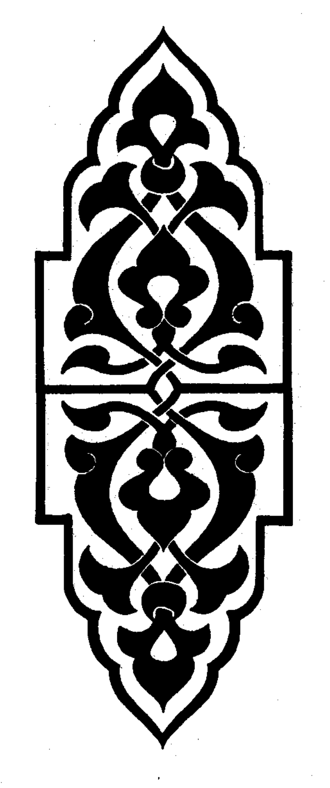
حُزْنٌ وَبُكَاءٌ

جَلَسَتْ أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ (رَضِىَ الله عنهَا) تَنْتَظِرُ أَخْبَارَ الجَيْشِ ، وَتَقُومُ بِوَاجِبِهَا فِى البَيْتِ وَرِعَايَةِ أَوْلَادِهَا ، وَتَذْهَبُ إِلَى المَسْجِدِ لِتُصَلِّى لِرَبِّهَا ، وَتَتَعَرَّفَ عَلَى الجَدِيدِ مِمَّا يَخْتَصُّ بالدَّعْوَةِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ كَانَتْ قَد بَذَلَتْ فِيهِ مَجْهُوداً كَبيراً فِى البَيْتِ دَبَغَتْ جُلُوداً كَثِيرَةً وَعَجَنَتِ العَجِينَ ، وَنَظَّفَتِ الأَوْلَادَ ، وَمَشَّطَتْ لَهُم شَعْرَهُمْ ، وَرَاحَتْ لِتَسْتَرِيحَ قَلِيلًا ، وَإِذَا بالبَابِ يَدُقُّ ، وَإِذَا بِهَا أَمَامَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِذَا بِهِ يَقُولُ : أَرْسِلِى إِلَىَّ أَبْنَاءَ جَعْفَرٍ !

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَبْنَاءُ جَعْفَرٍ (رَضِىَ الله عنهُم) ضَمَّهُمْ وَشَمَّهُمْ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ بالدُّمُوعِ(٢) .

سَأَلَتْ أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ (رَضِىَ الله عنهَا) نَفْسَها : مَاذَا جَرَى ؟ هَذِهِ زِيَارَةٌ لَيْسَتْ عَابِرَةً ، إِن دُمُوعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَذْرِفُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، لَا بُدَّ أَنَّ فِى الأَمْرِ شَيْئاً !



---

(١) راجع : البداية (٢٤١/٤ - ٢٦٢) .
(٢) أى تدفع بالدموع .

قَالَتْ أَسْمَاءُ (رَضِيَ الله عنهَا) : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ، هَلْ بَلَغَكَ شَيءٌ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ ؟

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ لَقَد أُصِيبُوا اليَوْمَ » .

ارْتَفَعَ صَوْتُ أَسْمَاءَ (رَضِيَ الله عنهَا) بالبُكَاءِ ... وَأَقْبَلَ إِلَيْهَا نِسَاءُ المُسْلِمِينَ يُشَارِكْنَهَا الحُزْنَ والرِّثَاءَ[1] .

وَرَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ انْشِغَالَ آل جَعْفَرٍ بِأَمْرِ جَعْفَرٍ عَنْ صِبْيَانِهِ الصِّغَارِ ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الدُّمُوعِ وَخَرَجَ مِنَ البَيْتِ ، وَتَلْقَاهُ فَاطِمَةُ (رَضِيَ الله عنهَا) بَاكِيَةً تَقُولُ : وَاعَمَّاهُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ جَعْفَرًا أَحَقُّ مَنْ بَكَتْ عَلَيْهِ النِّسَاءُ » ، ثُمَّ قال : « لَا تَغْفُلُوا آلَ جَعْفَرٍ مِنْ أَن تَصْنَعُوا لَهُم طَعَاماً ، فَإِنَّهُم قَد شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ »[2] .

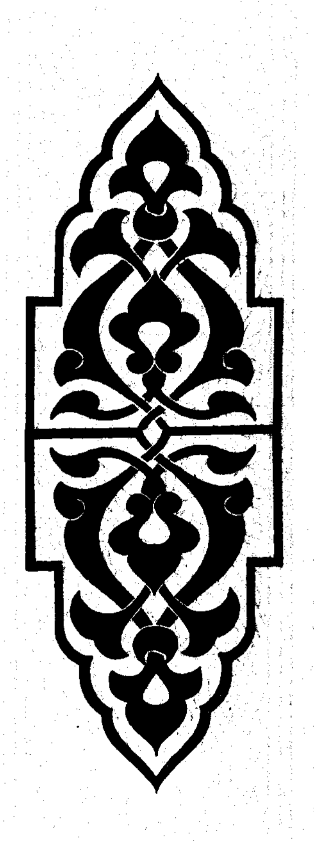
تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آلَ جَعْفَرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ جَاءَهُم ، فَقَالَ ﷺ : « لَا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ اليَوْمِ ، ادْعُوا لِي بَنِي أَخِي » .

فَجِيءَ بِهِمْ كَأَنَّهُمْ أَفْرَاخٌ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ادْعُوا لِيَ الحَلَّاقَ » .

فَجِيءَ بِالحَلَّاقِ فَحَلَقَ رُءُوسَهُمْ ...

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمَّا (مُحَمَّدٌ) فَشَبِيهُ عَمِّنَا أَبِي طَالِبٍ ، وَأَمَّا عَبْدُ اللهِ فَشَبِيهُ خَلْقِي وَخُلُقِي ،



---

(١) ذكر محامد الميت .   (٢) أخرجه أحمد (٦/٣٧٠) .

ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو : « اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفراً فِي أَهْلِهِ ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللهِ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ ، وَيُكَرِّرُ النَّبِيُّ ﷺ الدُّعَاءَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ »[1] .

عِبْءٌ وَمَسْئُولِيَّةٌ

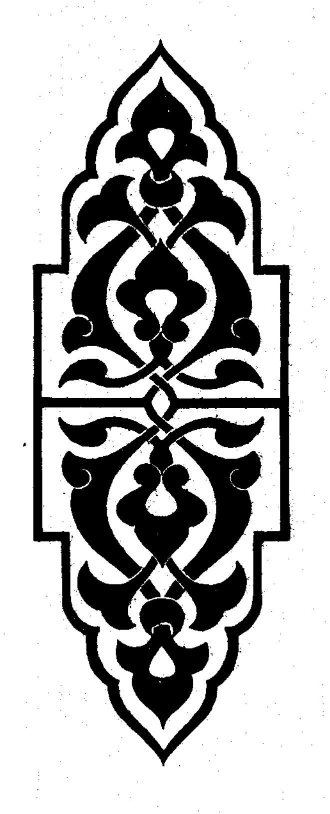
وَجَاءَتْ أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ (رَضِيَ الله عنهَا) ، وَقَد أُثْقِلَتْ بالمَسْئُولِيَّةِ ، وَأَخَذَتْ تَذْكُرُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يُتْمَ الأَوْلَادِ ... وَمَا تَخْشَاهُ مِنْ هَذَا الأَمْرِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَأَلعَيْلَةَ[2] تَخَافِينَ وَأَنَا وَلِيُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ »[3] .

وَتَابَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رِعَايَتَهُ لأَوْلَادِ ابنِ عَمِّهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ وَأَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ (رَضِيَ الله عنهَا) قَرِيبَةٌ مِنْهُ ، فَأَلْقَتْ عَلَيْهِ السَّلَام ، فَرَدَّ السَّلَام ، ثُمَّ قَالَ : « يَا أَسْمَاءُ ، هَذَا جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ مَعَ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ، مَرُّوا فَسَلَّمُوا عَلَيْنَا ، فَرُدَّتْ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ » .

قَالَتْ أَسْمَاءُ (رَضِيَ الله عنهَا) : هَنِيئاً لِجَعْفَرٍ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ مِنَ الخَيْرِ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَن لَا يُصَدِّقَنِي النَّاسُ ، فَاصْعَدِ المِنْبَرَ ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ يَا رَسُولَ اللهِ .

فَصَعدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المِنْبَرَ فِي المَسْجِدِ وَأَخْبَرَ النَّاسَ بِمَا سَمِعَ وَعَلِمَ .



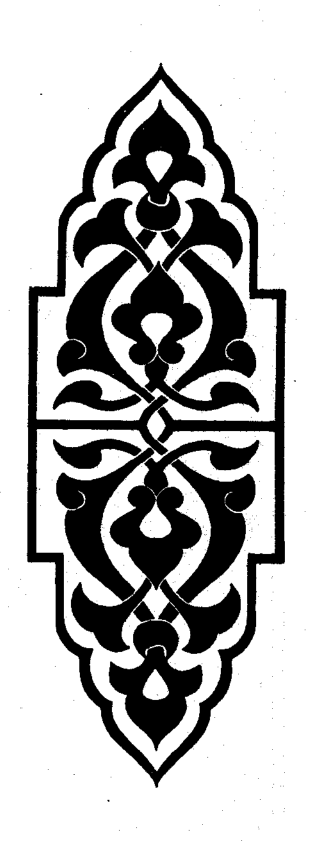
---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٢٧) . (٢) **العَيْلَةُ** : الفقر والحاجة .
(٣) طبقات ابن سعد (٤/٢٤ - ٣١) .

وَفَاءُ الأَوْفِيَاءِ

كَانَ المُسْلِمُ الأَوَّلُ يُرَاعِى اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِى صِلَتِهِ بِأَخِيهِ المُسْلِمِ ، فَيَرْعَى حُرْمَةَ بَيْتِهِ ، فَيُسَاعِدُهُ فِى حَيَاتِهِ ، وَإِذَا مَاتَ أَو اسْتُشْهِدَ كَانَ ذَلِكَ أَدْعَى أَن يَقُومَ بِوَاجِبِهِ نَحْوَ زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ وَهَذَا مَا يَجِبُ أَن يَكُون عَلَيْهِ المُسْلِمُ ، وَلَيْسَ عَيْباً أَن يَتَزَوَّجَ الصَّاحِبُ زَوْجَةَ صَاحِبِهِ ، ، فَفِى هَذَا تَكْرِيمٌ وَوَفَاءٌ ، فَتَحَمُّلُ عِبْءِ الزَّوْجَةِ وَالأَوْلَادِ أَكْبَرُ وَفَاءٍ .

لِذَلِكَ لَيْسَ فِى الأَمْرِ غَرَابَةٌ حِينَمَا يَتَقَدَّمُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ (رَضِىَ اللهُ عنهُ) إِلَى أُسْرَةِ الشَّهِيدِ جَعْفَرِ بنِ أَبِى طَالِبٍ فَيُكَرِّمُ زَوْجَتَهُ وَيَرْعَى شُئُونَ أَوْلَادِهِ ، فَيَسْتَشِيرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِى أَن يَقْتَرِنَ بِزَوْجَتِهِ وَيَرْعَى أَبْنَاءَهَا ، فَيَدْعُو لَهُ بالتَّوْفِيقِ وَالأَجْرِ وَالثَّوَابِ لِمُبَادَرَتِهِ هَذِهِ ، فالزَّوْجَةُ الشَّابَّةُ فِى حَاجَةٍ إِلَى زَوْجٍ كَرِيمٍ يُكْرِمُهَا وَيُكْرِمُ أَوْلَادَهَا وَيَكُونُ لَهَا عَوْناً عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ .



رِضَاءٌ بالقَدَرِ

إِنَّ مَا عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ مِن مَبَادِئَ سَامِيَةٍ لَيَمْلأُ قَلْبَ أَسْمَاءَ (رَضِىَ اللهُ عنهَا) بالرِّضَا ، وَإِنَّ تَقَدُّمَ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ (رَضِىَ اللهُ عنهُ) بالقِيَامِ بِمَسْئُولِيَّتِهِ لِيُكْرِمَهَا وَيَحْفَظَهَا ، لَعَمَلٌ يَسْتَوْجِبُ شُكْرَ اللهِ ، وَهَذَا مِن مَبَادِئَ

شَرِيعَتِهِ الغَرَّاءِ الَّتى دَعَا إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيْثُ يَقُولُ : « مَنْ خَلَفَ غَازِياً فِى أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَد غَزَا »[1] .

وَإِذَا كَانَ هَذَا فِى الغَازِى الحَىِّ ، فَكَيْفَ بالشَّهِيدِ ؟

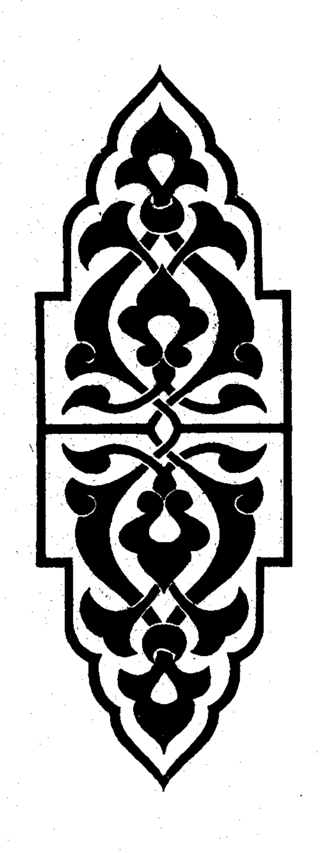
وَزَادَ مِن رِضَاهَا وَاطْمِئْنَانِ قَلْبِهَا إِلَى أَبِى بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ هُوَ الَّذِى زَوَّجَهَا .

إِنَّ دِينَنَا الحَنِيفَ يُحِيطُ بُيُوتَ المُسْلِمِينَ بالرِّعَايَةِ وَيَحْمِيهَا بِمَبَادِئِهِ وَقَوَانِينِهِ ، وَلِهَذَا مَنَعَ المَرْأَةَ مِنَ الاخْتِلَاطِ بالأَجَانِبِ ، وَحَرَّمَ خِلْوَتَهَا بالأَجَانِبِ مَهْمَا كَانَ الدَّاعِى إِلَى هَذَا الاخْتِلَاطِ ، وَمَنَعَ سَفرَ المَرْأَةِ مَعَ غَيْرِ مَحْرَمٍ ، مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ .

دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بيتَ أَسْمَاءَ (رَضِىَ الله عَنْهُمَا) ، فَوَجَدَ أَنَّ نَفَراً مِن بَنِى هَاشِمٍ دَخَلُوا بَيْتَهُ وَهُوَ غَائِبٌ، وَلَيْسَ بالدَّارِ سِوَى أَسْمَاءَ بنت عُمَيْس زَوْجِهِ ، فَلَمَّا رَآهُم كَرِهَ ذَلِكَ ، وَالْتَقَى الصِّدِّيقُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَشْهَدُ لأَسْمَاءَ بالطَّهَارَةِ وَحِفْظِهَا لِنَفْسِهَا وَعِرْضِهَا وَدِينِهَا ، وَيُثْبِتُ ذَلِكَ فِى قَوْلِهِ : « إِنَّ الله قَدْ بَرَّأَهَا مِن ذَلِكَ » .

فَهِىَ مُبَرَّأَةٌ طَاهِرَةٌ ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِن تَوْضِيحٍ وَعِلَاجٍ لِمِثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ حَتَّى يَكُونَ المُسْلِمُ عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ دِينُنَا العَظِيم (الإِسْلَامُ) .

صَعدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المِنْبَر وَوَضَعَ المَنْهَجَ لِحِمَايَةِ



---

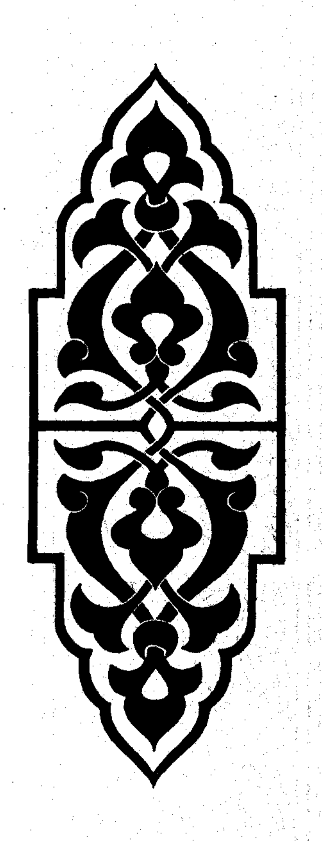
(١) أخرجه البخارى (٣٣/٤) .

البُيُوتِ ، وَحِفَاظاً عَلَى سَلاَمَتِهَا مِمَّا يُفْسِدُ سَعَادَةَ الأُسْرَةِ ، فَكَانَ مِمَّا قَالَهُ : « لَا يَدْخُلَنَّ رَجُلٌ بَعْدَ يَوْمِى هَذَا عَلَى مُغَيَّبَةٍ (١) إِلَّا وَمَعَهُ رَجُلٌ أَو اثْنَانِ » (٢) ، فَلَا يَجُوزُ أَن يَدْخُلَ البَيْتَ رَجُل أَجْنَبِىٌّ وَيَنْفَرِدَ مَعَ هَذِهِ المَرْأَةِ ، فَذَلِكَ يُؤْذِى الزَّوْجَ .

أَسْمَاءُ وَأَبُو بَكْرٍ (رَضِىَ اللَّـهُ عَنْهُمَا)

لَقَدْ عَوَّضَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَسْمَاءَ بنت عُمَيْسٍ بِحَيَاةٍ سَعِيدَةٍ مَعَ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيق (رَضِىَ الله عنهُما) ، فَهُوَ مَمْلُوءٌ بالرَّهْبَةِ وَالخَشْيَةِ ، وَهُوَ يَتْلُو كِتَابَ الله سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ الخَاشِعُ فِى صَلَاتِهِ ، وَهُوَ الَّذِى كَفَاهَا وَأَوْلَادَهَا كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْـهِ .

فَالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَم يَنْسَهَا ، فَعَوَّضَهَا خَيْراً بِأَبِى بَكْرٍ وَرَفَعَ مَنْزِلَتهَا فِى الآخِرَةِ بِرضَاهَا وَصَبْرِهَا وَقُوَّةِ احْتِمَالِهَا ، فَازْدَادَ شُكْرُهَا وَحَمْدُهَا لله العَلِىِّ القَدِيرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .



حَـقُّ اللَّـهِ

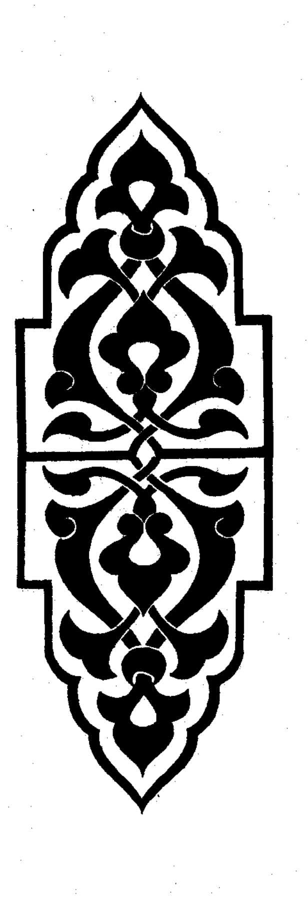
كَانَتْ أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ (رَضِىَ الله عنهَا) تَدْعُو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَن يَرْزُقَهَا مَوْلُوداً مِنْ أَبِى بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) أَحبِّ النَّاسِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ بَعْدَ

---

(١) المُغَيَّبَةُ : هى من غاب عنها زوجها : أى ليس زوجها بالمنزل .
(٢) أخرجه أحمد (٢/١٧١) .

أَن رُزِقَتْ بِأَوْلَادٍ مِن جعْفَرِ بنِ أَبِى طَالِبٍ (رَضِىَ الله عنهُ) وَقَد حقَّقَ الله لَهَا رَغْبَتَهَا ، فَشَعَرَتْ بِالْجَنِين يَتَحَرَّكَ فِى بَطْنِهَا ، فَحَمِدَت الله وَشَكَرَتْهُ وَأَرَادَتْ أَن تَمِيلَ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَمَاذَا تَصْنَعُ ، وَقَد سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُنَادِى فِى النَّاسِ أَن يَتَجَهَّزُوا لِلْخُرُوج إِلَى مَكَّةَ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الحَجِّ ، وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، لَكِنَّهَا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلتَّضْحِيَةِ بِرَاحَتِهَا لِأَدَاءِ هَذِهِ الفَرِيضَةِ ، وَوَافَقَهَا أَبُو بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) ، وَاسْتَعَدَّتْ لِلذَّهَابِ لِلْحَجِّ مَهْمَا كَانَتِ المَتَاعِبُ .

خَرَجَتْ (رَضِىَ الله عنهَا) ... وَسَارَتْ فِى الطَّرِيقِ الوَعِرِ مَحْمُولَةً عَلَى نَاقَتِهَا وَعِنْدَ (ذِى الحُلَيْفَةِ) عَلَى مَسِيرَةِ ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ مِنَ المَدِينَةِ ، فُوجِئَتْ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنهَا) بِآلَامِ الوَضْعِ ... وَيَسَّرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهَا فَوَضَعَتْ مَوْلُوداً أَسْمَاهُ أَبُوهُ (مُحَمَّداً) وَكَانَ سَعِيداً بِهِ ، وَسَعِدَتْ بِهِ أُمُّهُ كَثِيراً .



الحَجُّ مَعَ المَتَاعِبِ

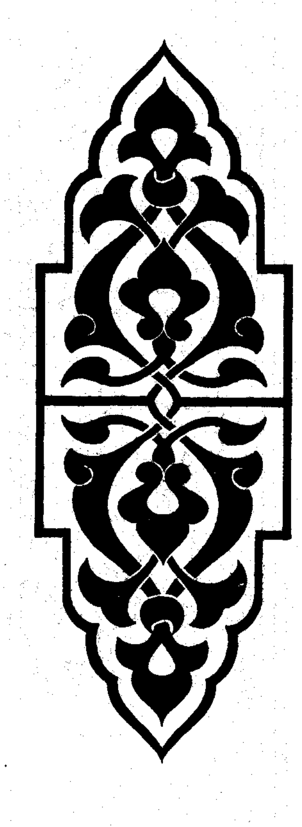
بَعْدَ الوِلَادَةِ كَانَتْ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنهَا) لَا تَزَالُ قَرِيبَةً مِنَ المَدِينَةِ ، والرُّجُوعُ إِلَيْهَا أَيْسَرُ لَكِنَّهَا فَضَّلَت أَنْ تَسْتَمِرَّ فِى مَسِيرَتِهَا إِلَى مَكَّةَ حَتَّى تَقْضِىَ حَجَّتَهَا بِالرَّغْمِ مِنَ الضَّعْفِ الَّذِى تَشْعُرُ بِهِ بَعْدَ الوَضْعِ .

وَلَكِنْ مَا حُكْمُ النُّفَسَاءِ [1] ، هَلْ يَصِحُّ لَهُنَّ الإِهْلَالُ بِالحَجِّ ؟

وَيَأْتِيهَا أَبُو بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) بِالخَبَرِ السَّارِّ ، نَعَمْ يَصِحُّ لَهَا أَن تُهِلَّ بالحَجِّ .

وَتُؤَدِّى أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ (رَضِىَ الله عنهَا) مَنَاسِكَ الحَجِّ مَعَ المُسْلِمِينَ مُلَبِّينَ وَمُكَبِّرِينَ وَمُهَلِّلِينَ ، طَائِفِينَ وَسَاعِينَ ، دَاعِينَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَانْشَرَحَتْ صُدُورُهُمْ بِصُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالعَوْدَةِ مَعَهُ مَأْجُورِينَ إِلَى المَدِينَةِ .

فِرَاقُ الأَحِبَّةِ



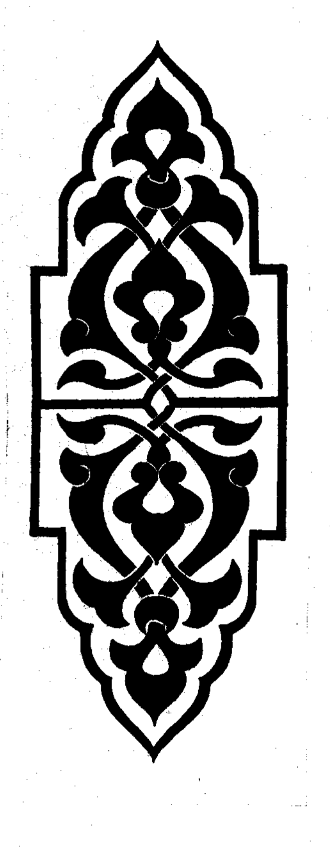
كَانَتْ أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ سَعِيدَةً بِحَجَّتِهَا وَمُرَافَقَتِهَا لِزَوْجِهَا أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيق (رَضِىَ الله عنهُما) وَلرَسُولِ اللهِ ﷺ . وَاسْتَمعَتْ لِخُطْبَةِ الوَدَاع ، وَأَشْفَقَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَن يَمْرَضَ وَقَد أَدَّى رِسَالَتَهُ كَامِلَةً ، وَحَصَلَ مَا كَانَتْ تَتَوَقَّعُهُ ، فَقَد مَرِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ المَرَضُ ، وَوَقَفَتْ أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ مَعَ أَزْوَاجِهِ (رَضِىَ الله عَنْهُنَّ) حَزِينَةً بَاكِيَةً مُسْتَسْلِمِينَ لِأَمْرِ اللهِ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ وَقَضَائِهِ ، وَهُمْ فِى اضْطِرَابٍ وَذُهُولٍ شَدِيدَيْنِ لَا يَدْرُونَ مَا يَقُولُونَ أَوْ يَفْعَلُونَ ، وَهُمْ بَيْنَ المُصَدِّقِ بِمَوْتِهِ وَالمُكَذِّبِ أَنَّ

---

(١) النُّفَسَاءُ : التى وضعت حملها .

رَسُولَ اللهِ ﷺ قَد مَاتَ ، حَتَّى يُوَفِّقَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَبَا بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) ، فَيُعِيدُ النَّاسَ إِلَى الصَّوَابِ ، بِمَا أَعْطَاهُ مِنَ التَّوْفِيقِ ، وَيَبْدَأُ المَسِيرَةَ الَّتِى رَسَمَتْهَا الأَقْدَارُ كَمَا أَرَادَهَا المَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

خِلَافَةُ الصِّدِّيقِ (رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ)



أَعْطَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القُوَّةَ لِعَبْدِهِ أَبِى بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) ، فَيَتَوَلَّى الخِلَافَةَ ، لِيُكْمِلَ المَسِيرَةَ الَّتِى وُفِّقَ لَهَا ، فَلَا يَتَهَاوَنُ ، وَلَا يَرْكَنُ إِلَى الضَّعْفِ وَالاسْتِسْلَامِ ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُ الأُمُورَ بِقُوَّةِ الإِيمَانِ ، وَالسَّيْرِ بِالإِسْلَامِ ، إِلَى طَرِيقِهِ القَوِيمِ .

فَيُحَارِبُ فِى جَبَهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَىْ يَظَلَّ الإِسْلَامُ نَقِيًّا وَاضِحَ المَعَالِمِ كَمَا تَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، لَقَد وَاجَهَ مَانِعِى الزَّكَاةِ وَحَارَبَهُم ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُم تَعْلِيلًا وَلَا تَوْجِيهاً ، وَحَارَبَ المُرْتَدِّينَ وَمُدَّعِى النُّبُوَّةِ ، وَسَيَّرَ الجُيُوشَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ تَظْهَرُ فِيهِ مُخَالَفَةٌ أَوْ مُفَارَقَةٌ ، وَاهْتَمَّ بِكُلِّ شَىْءٍ ، وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ مَا اهْتَمَّ بِهِ هُوَ جَمْعُ القُرْآنِ وَذَلِكَ عِنْدَمَا عَرَفَ أَنَّ كَثِيراً مِنَ القُرَّاءِ قَدِ اسْتُشْهِدُوا فِى المَعَارِكِ .

عَاشَتْ أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ مَعَ الصِّدِّيقِ (رَضِىَ الله عنهُما) دَاخِل بَيْتِهِ تَشُدُّ مِنْ أَزْرِهِ ، وَتُقَوِّى مِنْ عَزِيمَتِهِ وَتُسَاعِدُهُ عِنْدَمَا يَطْلُبُ مِنْهَا مُسَاعَدَةً ، وَهِىَ كَمَا هِىَ فِى

الْمُجْتَمَعِ كَفَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ ، لَمْ تَتَمَيَّزْ بِمِيزَةٍ خَاصَّةٍ ، فَلَمْ تَتَغَيَّرْ أَو تَتَبَدَّلْ .

لَقَد اقْتَرَبَ العَامُ الثَّانِي مِن تَوْلِيَةِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ الله عنـهُ) الخِلَافَةَ ، وَأَدَّى رِسَالَتَهُ ، كَامِلَةً ، وَرَجَعَ الهُدُوءُ وَالسَّكِينَةُ إِلَى عَامَّةِ المُسْلِمِينَ كَمَا تَرَكَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَحَمِدَ الصِّدِّيقُ (رَضِيَ الله عنهُ) الله وَشَكَرَهُ أَن وَفَّقَـهُ إِلَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْـهِ الأُمُورُ .

لَقَد أَصَابَهُ المَرَضُ ، وَثَقُلَ جَسَدُهُ ، وَشَعَرَ أَنَّ أَجَلَهُ قَد دَنَا ، وَأَنَّ الآخِرَةَ تُنَادِيهِ ، فَمَاذَا فَعَلَ ؟

كُلُّ مَا فَعَلَهُ (رَضِيَ الله عنهُ) أَنْ نَادَى أَسْمَاءَ بنتَ عُمَيْسٍ (رَضِيَ الله عنهَا) زَوْجَتَهُ ، وَأَوْصَاهَا ! وَبِمَ أَوْصَاهَا ؟

أَوْصَاهَا أَن تُغَسِّلَهُ ، وَكَانَتْ صَائِمَةً فَعَرَضَ عَلَيْهَا أَن تُفْطِرَ لأَنَّ ذَلِكَ أَقْوَى لَهَا عَلَى أَدَاءِ مُهِمَّتِهَا ، وَهِيَ أَنْ تُغَسِّلَهُ .

وَتَسْتَمِعُ الزَّوْجَةُ الصَّابِرَةُ المُؤْمِنَةُ الصَّادِقَةُ ، فَتَقُومُ بِتَغْسِيلِهِ ، لَكِنَّهَا لَا تَزَالُ صَائِمَةً ، وَقَرُبَ غُروبُ شَمْسِ يَوْمِ صِيَامِهَا ، وَشَرِبَتِ المَاءَ طَاعَةً وَوَفَاءً لِزَوْجِهَا الحَبِيبِ ، وَأَفْطَرَتْ تَنْفِيذاً لِمَا أَشَارَ بِهِ زَوْجُهَا الحَبِيبُ فَرَضِيَ الله عنهُ وَرَضِيَ عَنْهَا .

★ ★ ★

أَسْمَاءُ وَعَلِيٌّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)

مَاتَتِ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ (رَضِيَ الله عنهَا) فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ الله عنهُ) ، ثُمَّ مَاتَ الخَلِيفَةُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَخَلَّفَ وَرَاءَهُ أَسْمَاءَ بنت عُمَيْسٍ ، وَرَأَى عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ أَن يَضُمَّ أَوْلَادَ أَخِيهِ جَعْفَرِ ابنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَيْهِ وَلَا مَانِعَ يَمْنَعُ مِن زَوَاجِهِ بِأَسْمَاءَ بنتِ عُمَيْسٍ فَضَمَّهَا إِلَيْهِ فِي بَيْتِهِ وَمَعَهَا أَبْنَاءُ أَخِيهِ جَعْفَرٍ وَهُمْ : عَبْدُ اللهِ ، وَمُحَمَّدٌ ، وَعَوْنٌ ، وَمَعَهَا ابنُ أَبِي بَكْرٍ ، مُحَمَّدٌ (رَضِيَ الله عنهُم) .

وَيَمُرُّ الزَّمَانُ وَأَسْمَاءُ مَعَ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ الله عنهُما) فَتَلِدُ لَهُ وَلَدَيْنِ هُمَا : يَحْيَى ، وَعَوْنٌ .

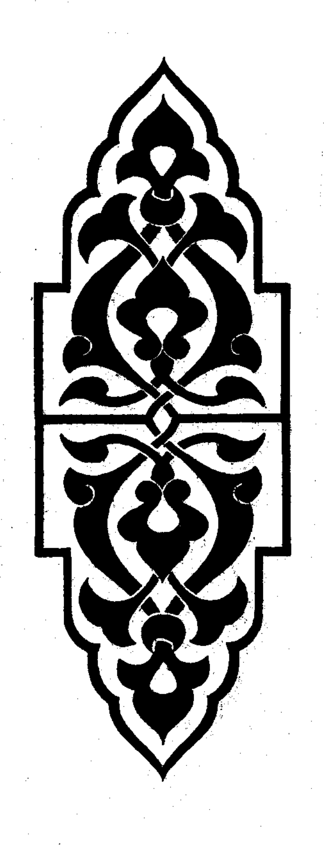
وَيَشِبُّ الأَوْلَادُ وَيَكْبَرُونَ فِي بَيْتِ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ الله عنهُ) ، وَقَد تَرَبَّوْا عَلَى كَامِلِ الحُرِّيَّةِ والأُخُوَّةِ وَالمَحَبَّةِ .

وَتَحْدُثُ مُنَافَسَةٌ بَيْنَ مُحَمَّد بنِ جَعْفَرٍ ، وَمُحَمَّدِ ابنِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ الله عنهُم) .

وَتَفَاخَرَ المُحَمَّدَانِ (رَضِيَ الله عنهُما) :

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ جَعفَرٍ لِمُحَمَّدِ بنِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ الله عنهُم) : أَنَا أَكْرَمُ مِنْكَ ... وَأَبِي خَيْرٌ مِنْ أَبِيكَ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي بَكْرٍ لِمُحَمَّدِ بنِ جَعْفَرٍ



(رَضِىَ الله عنهُم) : بَلْ أَنَا أَكْرَمُ مِنْكَ ... وَأَبِى خَيرٌ مِنْ أَبِيكَ .

وَيَسْمَعُ عَلِيُّ بنُ أَبِى طَالِبٍ (رَضِىَ الله عنهُ) هَذِهِ المُحَاوَرَةَ ، فَلَا يَضِيقُ صَدْراً ، وَلَا يَنْهَرُ الأَبْنَاءَ ، وَيَتَطَلَّعُ إِلَى أُمِّهِمْ أَسْمَاءَ بنتِ عُمَيْسٍ (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا فِى مَرَحٍ ، وَيَقُولُ لَهَا اقْضِى يَا أَسْمَاءُ بَيْنَهُمَا .

ابْتَسَمَتْ أَسْمَاءُ (رَضِىَ الله عنهَا) ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً ثُمَّ قَالَتْ : مَا رَأَيْتُ شَابًّا مِنَ العَرَبِ خَيْراً مِن « جَعْفَرٍ » ، وَلَا كَهْلًا خَيْراً مِنْ « أَبِى بَكْرٍ » ، لَقَد سَوَّتْ بَيْنَهُمَا فِى كُلِّ شَىْءٍ ، وَكَانَ الفَرْقُ فِى وَصْفِ عُمْر الزَّوْجِ حِينَ اقْتَرَنَتْ بِهِ .

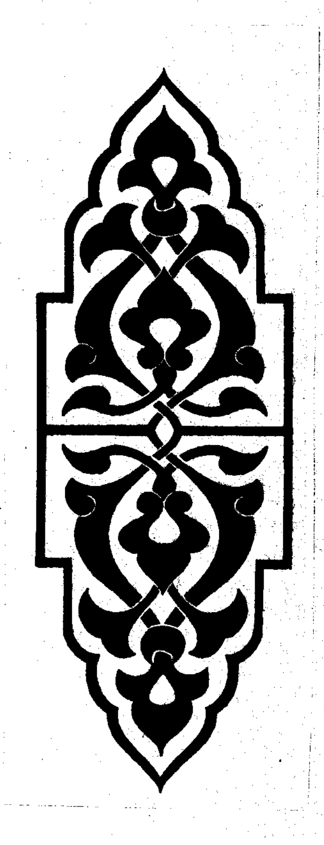
فَجَعْفَرُ بنُ أَبِى طَالِبٍ ... كَانَ شَابًّا .

وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ... كَانَ كَهْلًا .

وَلَكِنَّهَا فِى كِلْتَا الحَالَتَيْنِ ... مَا رَأَتْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمَا (رَضِىَ الله عنهُم أجمعين) .

قَالَ عَلِيُّ بنُ أَبِى طَالِبٍ (رَضِىَ الله عنهُ) : لَو قُلْتِ غَيْرَ الَّذِى قُلْتِ لَمَقَتُّكِ ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ مَنْزِلَةَ أَخِيهِ جَعْفَرٍ ، وَيَعْلَمُ أَيْضاً مَنْزِلَةَ أَبِى بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُم) .

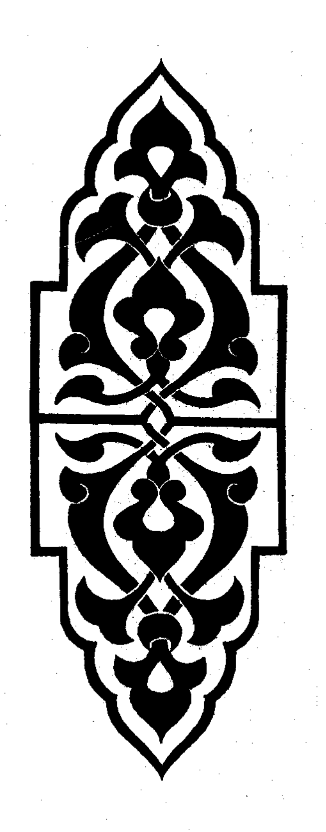
وَتَمْتَدُّ الحَيَاةُ بِأَسْمَاءَ بنتِ عُمَيْسٍ لِتَرَى عَلِيَّ بنَ أَبِى طَالِبٍ (رَضِىَ الله عنهُما) يُسْتَشْهَدُ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَد أَدَّى رِسَالَتَهُ كَامِلَةً ، وَيَلْقَى رَبَّهُ شَهِيداً لِيَنَالَ



مَنْزِلَةً كَبِيرَةً عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَيَلْتَقِى بالشُّهَدَاءِ فِى جَنَّةِ الخُلْدِ .

وَتَبْقَى أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ (رَضِىَ الله عنهَا) رَاضِيَةً بِقَضَاءِ رَبِّهَا مَعَ ذِكْرَيَاتِهَا الأَلِيمَةِ بَقِيَّةَ حيَاتِهَا .

إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى



عَاشَتْ أَسْمَاءُ بنتُ عُمَيْسٍ (رَضِىَ الله عنهَا) لِلتَّحَمُّلِ وَالصَّبْرِ ، وَكَانَ الصَّبْرُ وَاضِحاً فِى حَيَاتِهَا صَبَرَتْ عَلَى فِرَاقِ بَلَدِهَا ، وَهَاجَرَتْ إِلَى الحَبَشَةِ ، وَاسْتَمَرَّتْ مُدَّةً طَوِيلَةً فِى دَارِ الغُرْبَةِ ، ثُمَّ هَاجَرَت إِلَى المَدِينَةِ ، وَلَمْ يَمْضِ عَلَيْهَا قُرَابَةُ العَامِ ، حَتَّى تُوفِّىَ زَوْجُهَا جَعْفَرُ بنُ أَبِى طَالِبٍ ، وَتَزَوَّجَتْ بَعْدَهُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ، ثُمَّ تُوفِّىَ بَعْدَ أَنْ أَوصَى بِأَن تُغَسِّلَهُ زَوْجَتُهُ أَسْمَاءُ ، ثُمَّ تَزَوَّجَتْ عَلِيَّ بنَ أَبِى طَالِبٍ ، وَيَمْتَدُّ بِهَا الأَجَلُ لِتَشْهَدَ مَوْتَهُ وَوَفَاتَهُ (رَضِىَ الله عنهُم) .

ظَلَّتْ حَبِيسَةَ بَيْتِهَا ، لَا تَذْهَبُ إِلَّا إِلَى مَسْجِدِهَا لِعِبَادَةِ رَبِّهَا ، وَكَانَتْ كَثِيرَةَ الصِّيَامِ كَثِيرَةَ الدُّعَاءِ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهَا فِى السَّنَةِ الأَرْبَعِينَ مِنَ الهِجْرَةِ ، رَحِمَهَا الله وَرَضِىَ عَنْهَا(١) .

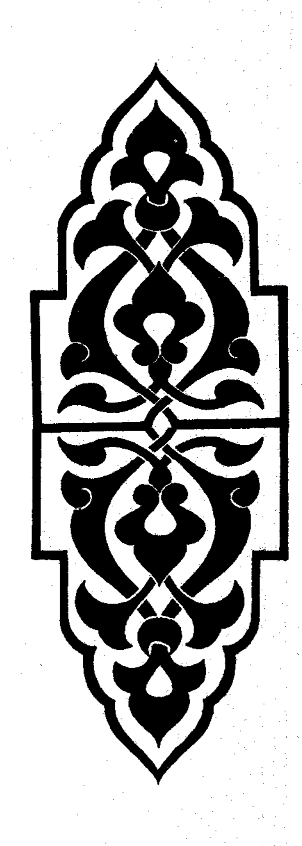


(١) راجع : البداية (٣١٨/٧ ، ٣١٩) .

وإلى اللقاء بمشيئة الله مع ..

أم هانئ رضي الله عنها
المكية الطاهرة، الولود الودود

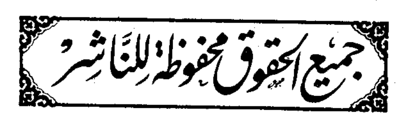




دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس: ٤١٨٩٦٦٥
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦


وكيلنا في المملكة المغربية:
دار الاعتصام
للطباعة والنشر والتوزيع
الدحماني عبد الكريم
35 - 33 الشارع الملكي (الأحباس). الدار البيضاء
الهاتف 30.42.85 - الفاكس 44.45.39



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٧٦١٥ / ١٩٩٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدي ـــ ١١٢٣١

